مؤتمر الدوحة السابع لحوار الأديان

الدوحة ــ قطر / ٢٠-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩

التضامن والتكافل الإنساني
ومواجهة الكوارث الطبيعية والمجاعات في العالم من منظور ديني

ثاوفيلوس جورج صليبا
مطران جبل لبنان وطرابلس للسريان الأرثوذكس

لما خلق الله الإنسان الأول أبانا آدم، تأمّله الخالق ونظر إلى عقله وقلبه وعواطفه وأحاسيسه. وسرّ بخليقته هذه، ثم رأى حاجته إلى شريك، فأطلق تعالى العبارة الباقية على الأجيال "ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فأصنع له معيناً نظيره"، فخلق له حواء لتكون المعين والشريك بل رفيق الحياة لآدم. وهكذا بدأ التضامن والتكافل في الطبيعة البشرية.

وسارت الإنسانية مسيرتها عبر الأجيال، والإنسان يوماً بعد آخر يشعر بحاجته الماسّة للآخرين. فعلى الرغم من المواهب والعطايا والخيرات التي خصّ بها هذا المخلوق العجيب المخلوق على صورة الله ومثاله، ظلّ النقصان ملازماً لمسيرته وسلوكه، طالما تملّكته الحاجة ورافقت هذه المسيرة، بل حعلته ينظر من قريب ومن بعيد من هو الذي سيعينه ويهديه ويرشده إلى ما يتمنى وما يحتاج إليه.

وعلى هذا الأساس قامت العائلة، الوالدان والأولاد، لتكون العائلة النواة الأساسية في بناء المجتمع، ليتفاعل الإنسان مع عائلته ومجتمعه والمتعاملين معه إن كانوا من العائلة نفسها أو

الأقارب أو الجيران أو الأصحاب، لأنّ نقصان الإنسان لا يكمّله إلا التفاعل مع الآخرين والتعاون معهم تحقيقاً لما يرجو ويطلب، بل لما يسعى إليه ويبغي.

فالإنسان هو الأنس، والأنس لا ينبع من الذات من التعامل مع الآخر الذي هو الشريك والصديق والمعين والعامل، وهذا يبدأ بابن الجنس والنوع وصولاً إلى اكتشاف الذات بالآخر. فالآخر هو الذي يسبّب الثقة والإعتداد بالذات أو التضحية أو التجرّد، بل الإقدام والإحجام... وفي كل الحالات، إنّ ردّات الفعل إيجابية كانت أو سلبية تمنح الإنسان الشعور بما يجب أن يفكّر أو يعمل، ليكون مقبولاً في بيئته أو مرفوضاً في مجتمعه. ولا بدّ من التضامن البشري لتكتمل الصورة ويظهر المشهد نتيجة القرار النابع من العقل والقلب. ممّا يقود هذا المخلوق إلى القناعة التي تحرّكه للوصول إلى مبتغاه وبلوغ مشتهاه، هذا في حالة النجاح. أما في حالة الفشل في مخطّطه، فيكون الإخفاق ثمرة قلّة الحكمة والفهم والخطأ في تقدير الأمور.

الإتكال على الله لدى المؤمن هو موضوع ثقة بالخالق الذي يحبّ الإنسان كلّ إنسان... ولكن لا يكفي أن يكون الإنسان متكلاً في كل أموره على الله بدون السعي إلى العمل لتحقيق الأماني، مع الضرورة القصوى لهذا الإتكال... لأنّ الله أعطى الإنسان عقلاً وحكمةً وفهماً ليتدبّر أموره في حياة العالم في مسيرة الحياة... وزيّنه بنعمة الإدراك والتمييز والحرية، فإن أحسن الإختيار واتكل على الله ينجح، ونجاحه يكون عظيماً. وإن لم يحسن الإختيار ولم يدرك ويميّز، سقط ويكون سقوطه أيضاً عظيماً...

لماذا هذه الملاحظات؟ نجيب إنّ الإنسان هو ابن المجتمع بل ابن الحياة... هناك صفات تخلق معه، وهناك صفات ومواهب يكتسبها في الحياة من عائلته ومجتمعه وبيئته، بل من خبرته وخبرات الآخرين، ومن جدّه واجتهاده، الأمور التي تسهّل الدروب أمامه وتجعلها في متناول عقله وقلبه وقدرته... وقد قال الأوّلون "**الناس بالناس والكل بالله**"، فلا غنى لأحد عن الآخرين... ولا ثراء وتقدّم وفلاح إلا مع الآخرين، تأكيداً لبركة الله بالإتكال على قدرته ومحبته وعطفه على البشر.

من هنا جاء علماء الإجتماع والباحثون والمختصّون ليقولوا: **إنّ التضامن البشري والخبرة في الحياة هما الوسيلة الجادّة والجدّية ليكون الإنسان سوياً في حياته، مرتاحاً في مجتمعه، مطمئناً لمستقبله، إذ لا يمكن أن يعيش الإنسان بدون الآخر، حيث يضمن معه التضامن والتكامل والتكافل. وتأتي مسيرة الحياة طبيعية للأفراد والجماعات على حدٍّ سواء.**

ما أسعد الإنسان إذا كان مبالياً مهتماً ملتزماً، بما هو لله ولضميره ولمجتمعه ولوطنه بل للإنسانية عامة...

هذه المسيرة التي نتحدّث عنها، لا يمارسها الإنسان على وتيرة واحدة من الإضطراب والأستقرار، إذ إنّ المتغيّرات في مسيرة حياة الإنسان هي شأن طبيعي ومعمول به وممارس. وقد قال الشاعر يوماً:

لكلّ شيءٍ إذا ما تمّ نقصان | فلا يغرّ بطيب العيش إنسان

هي الأيام كما شاهدتها دول | من سرّه زمن ساءته أزمان

فالإنسان منذ ولادته وحتى بلوغه لحده في غيابه عن هذا العالم، التجارب محيطة به، المآسي تعترض مسيرته، المرائر تعكّر مزاجه، وعاديات الزمان تتعبه... وليس من يعيش هذه الحياة على وتيرة واحدة... فبقدر ما يواجه من سأم من تكاليف الحياة، يعيش أيضاً في بحابح الحياة... والحالتان نسبيّتان عند الإنسان. وغالباً ما تفوق المتاعب أزمان الراحة عند الإنسان. وفي هذه وتلك يتعامل الإنسان بما يراه مناسباً ويسعى إليه.

الكوارث الطبيعية والمجاعات في العالم هي جزء مما يواجهه أو يمسّه أو يعاينه في الآخرين... فيفرح للإيجابيات ويحزن للسلبيات وكأنّها تصيبه هو وحده... وقد شخّص علماء النفس شخصية الإنسان أنّ له شخصية مميّزة اصطلحوا عليها بعبارة "التليباثية Telepathy"، أي أنّ الإنسان يفرح مع الفرحين ويحزن مع الحزانى... وظروف الحياة تعمل في حياته عملاً بارزاً... ولا سيّما الأعمال المأساوية والنتائج السلبية لجنون الطبيعة مثلاً، وهذه عاطفة تتفاوت لدى المخلوقات ولا سيّما الإنسان... إذ لسنا ناسين الفيضانات التي ضربت الشرق الأقصى

بكوارث طبيعية مميتة ومدمّرة أطلق عليها "تسونامي Tsonami". فضحايا هذه الإعصارات وسواها لامست وضربت الأبرياء الذين لم يسيئوا إلى الطبيعة ولم يكونوا في أيّ شكل من الأشكال فاعليها ومسبّبيها...

أو عندما نعاين ونقرأ ونسمع أخبار المجاعات في العالم ولا سيّما ما يعترض أجزاء كثيرة من العالم كأفريقيا والهند وسواهما من المناطق في العالم من قحط وشحّ وانسداد ميازيب السماء والتي تبخل على سكان تلك المناطق بالمياه حيث تجفّ العيون وتيبس الأرض وتنعدم الزروع، وتكون ضحية هذه الكوارث مجموعات بشرية ومخلوقات عجماء ونباتات وسواها من المخلوقات التي هي بحاجة إلى المياه... أو حرائق تطال الإنسان بحياته ومسكنه وطبابته وكل ما له.

هذه كوارث طبيعية، سمح الله بحلولها، فلا يشمت أحد بأمّة تصاب بهذه الكوارث ولا بوطن أو أرض أو مستقر. فهذه المصائب هي أمام كل إنسان وعلى أبواب كل البشر، وفي كل لحظة البشرية معرّضة لمثل هذه الكوارث في كل زمان زمكان...

من هنا، نتيجة خبرات الإنسان، وشعوراً بالحاجة، والأوّلون قالوا "**الحاجة أمّ الإختراع**"، اخترع الإنسان الوسائل والقدرات لمقاومة كوارث الطبيعة وسواها من كل الجوانب... وفي نفس الوقت أوجد الوسيلة للتعبير عن رفضه لما يحدث متكلاً على الله وعقله وضرورة التعامل والتفاعل والتضامن مع الآخرين، تأكيداً للمثل الشائع "**يد الله مع الجماعة**"، والعمل مع الجماعة عامل نجاح غالباً...

فالجماعة المتضامنة والمشتركة في تحدّي المصائب والصعوبات والأخطار، بإمكانها التخفيف من ويلات وأهوال الكوارث مهما كان حجمها وقوّتها وتأثيرها... فهذا وازع إنساني يولد مع الإنسان ويُكتسب بالفطرة والتجربة والخبرة. وليس الإنسان وحده الذي يشعر بحجم الكوارث ويقاومها. فالعجماوات أيضاً لها من فطرتها وسليقتها وحبها للحياة ما يجعلها أن تبذل ما بإمكانها للنجاة والهرب من تأثير هذه الكوارث. فالحياة طيبة، ولا مخلوق يطلب الشرور والخراب الذي تقود إليه هذه المصائب والويلات.

يشترك البشر في كل القارات على هذه البسيطة في العواطف والمشاعر المطلوبة لمواجهة الكوارث الطبيعية والمجاعات. ويتميّز الشعور الديني أمام هول هذه الكوارث والمجاعات... ذلك لأنّ الإنسان تلتقي وتجتمع في شخصه مواهب العقل والفهم والإدراك والإرادة، ويعتبر نفسه سيّداً للعالم على غرار خالقه، فهو من هذا القبيل مسؤول عن مسيرة الكون، ولهذا أوجد لنفسه كل الآلات والوسائل التقليدية الموروثة والإختراعات التي زيّنه الله بالعقل ليستنبطها ويجدها، وتكون وسيلة ناجحة وناجعة للإفلات من تأثير هذه الكوارث. هذا في مطلق الأحوال، أما الدين، فلا دعوة له ولا رسالة إلا الخير والسعي إلى تجسيده وتطبيقه في العالم. فالعامل الديني هو ضمير، والضمير "**هو صوت الله في الإنسان**"، والله لا يرضى إلا بالخير... من فعل وتطبيق ونشر وإعلام وإعلان. فالمبادرة الدينية حاضرة دائماً، والمنظور الديني يرفض أيّ تباطؤٍ في فعل الخير، وقد علّمنا سليمان الحكيم بأمثاله قائلاً: "**لا تمنع الخير عن أهله حين يكون في طاقة يدك أن تفعله**".

فمواجهة الكوارث الطبيعية هي عامل تضامن وتكافل إنساني مفروضة على الإنسان تلقائياً، وهي أحدى المزايا التي فُطر عليها الإنسان منذ ولادته... وتتفاوت بين شخص وآخر، ولكن بالعموم هي عامل خير في مسيرة الحياة الإنسانية.

الكوارث الطبيعية هي عامل خوف عند الناس، لهذا يشعر الإنسان كل إنسان، إنّه مهدّد وعليه أن يجد الوسيلة والواسطة لإزاحة كابوس الخوف. وهل كالكوارث الطبيعية مهدّد لحياة الناس، فالطبيعة لا تستجيب ولا تسمع ولا تعي ولا تفهم.

وقد تعوّد الناس أثناء الضيقات أن يلجأوا إلى السماء ويطلبوا رحمة الله، متشفّعين بالأولياء والأصفياء والقدّيسين، ومستغيثين بصلواتهم وبمشاركتهم الطلب من الله أن يحميهم ويردّ عنهم هذه الأهوال والمصائب، ويخفّف وطأتها وحدّتها وقسوتها وأضرارها التي قد تكبر وتستفحل أكثر لو لم يُقيَّض للجماعات والأفراد أن يتغلّبوا عليها ويقهروها ويخفّفوا من أضرارها ومفاعيلها السلبية الرهيبة.

وبالمقابل، المصائب والكوارث التي تضرب البشر بأفعال مقصودة من الأفراد والجماعات والدول، فهذه ليست أقلّ خسارة من الكوارث الطبيعية. فالإنسان، خاضع في معظم الأوضاع للحالات النفسية والحالات التي تتوخّى المصالح التي تعصف بالجنس البشري وتقوده إلى الهلاك.

إنّ أسلحة الدمار الشامل التي اخترعها الإنسان وجعلها وسيلة هجوم ودفاع، فأضرارها أسرع تأثيراً وأكثر شمولاً. إذا استعملها البشر لا تقضي على مجموعة كبيرة أو صغيرة من البشر ولا على بقعة صغيرة أو كبيرة من الأرض. فبإمكان هذه الأسلحة أن تبيد الحياة على الأرض وتلغي الوجود للأحياء بشراً وحيوانات ونباتات وصخوراً وجماداً... وهناك آية في العهد الجديد من الكتاب المقدّس "العناصر تذوب محترقة"، كنبوءة عن مصير الكون والإنسان.

فالكوارث الطبيعية من منظور ديني، هي سماح من الله لتكون وسيلة لعودة الناس إلى التمسّك والتعلّق بالقيم والتماس بركات السماء... وفي نفس الوقت ليكون البشر في حالة مستمرّة ودائمة من الإستعداد لاستقبال ذلك اليوم الذي لا يدري به الملائكة وأصفياء الله...

نجّانا الله وحمانا من المصائب والويلات التي تمارسها الطبيعة أو المتصارعون والمتسابقون في اختراع أسلحة الدمار الشامل... لتعيش الإنسانية بطمأنينة ورجاء ابتغاءً للحياة الأبدية أمنية العقلاء والحكماء والصالحين في العالم...

البوشرية في ٢٠٠٩/٨/٣١

ثاوفيلوس جورج صليبا

مطران جبل لبنان وطرابلس للسريان الأرثوذكس